

## هاني الهندي\*

### مع جورج حبش أيام الدراسة الجامعية

في خريف سنة 1947 انتسبت إلى الجامعة الأميركية في بيروت بقصد الدراسة. كانت أيام تلك الفترة مملوءة بالنشاط السياسي شاركت فيها طلبة كثيرين بتظاهرات ضد قرار تقسيم فلسطين الذي صدر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة في 1947/11/29، كما كنت في أثنائها ناشطاً في جمعية العروة الوثقى، وهي الجمعية الأنشطة والأقدم في الجامعة. بعد أسابيع قليلة من بدء الدراسة اتصل بي طالب من صفي هو محمد ناجي ضللي، ودعاني إلى حضور ندوة سرية كان من أعضائها أحمد اليشريطي وعصمت صفدي وآخرون لا أذكر أسماءهم الآن. وكان مسؤول الندوة هو معتوق الأسمر، وكان طالباً يعد لنيل درجة علمية متقدمة، وعرفت فيما بعد أنه من تلامذة الدكتور قسطنطين زريق المقربين. وفي أواخر نيسان/أبريل شاركت مع العديد من الطلاب في إضراب عن الطعام أقمناه في إحدى قاعات الجامعة مطالبين بدخول الجيوش العربية إلى فلسطين لإنقاذ شعبها من التهجير والمذابح التي كان الصهيونيون ينظمونها ضد جماهيرنا هناك. وفي أواخر ذلك العام الدراسي جرت انتخابات الهيئة الإدارية لجمعية العروة الوثقى، ثم دعيت وعدد من الطلاب إلى مقهى في فوار أنطلياس قرب بيروت، حيث تناولنا الغداء واستمعنا إلى محاضرة قومية خاصة.

بعد نهاية العطلة الصيفية تم الاتصال بي لحضور ندوة أسبوعية خاصة كان الدكتور زريق يقدم فيها محاضرات عن مفهومه للقومية العربية مشدداً على أهمية الوحدة العربية، كما كان يتناول المدارس المتعددة التي تساعد في فهم المسألة القومية، مركزاً على أهمية النظام الديمقراطي والانتخابات الشعبية وضرورة مشاركة الجماهير فيها. لعل من المهم والواجب ذكره أن زريق كان يفتح باب النقاش والحوار للأعضاء جميعهم في هذه الندوة التي كانت تعقد اجتماعاتها في النادي الثقافي العربي، قرب الجامعة. وكان توفيق شخشير هو المسؤول الإداري عن هذه الندوة؛ ولم أكن أعرف آنذاك أنه كان طالباً في كلية الطب وزميراً لجورج حبش في الدراسة والمسكن. بعد أسابيع قليلة من بداية محاضرات زريق طلبت من شخشير في نهاية إحدى الندوات أن نلتقي بمفردنا لأن هناك موضوعاً أريد أن نتحدث عنه. وفي ذلك اللقاء الذي تم في مقهى فيصل سألت شخشير بصراحة مباشرة قائلاً: "هل تعتقد يا حكيم\*\* أن هذه المحاضرات الممتازة والمفيدة جداً التي يلقيها علينا زريق يمكن أن توصلنا إلى استرداد حيفا ويافا والجليل وطرد الصهيونيين من فلسطين؟" استغرب الرجل مثل هذا السؤال الذي لم يتوقعه قط ولاحظت انفعالاته، كما ظهرت على وجهه علامات الاندهاش والتعجب؛ لكنه تماك نفسه ورد عليّ بسؤال قائلاً: "ماذا تقصد بسؤالك هذا؟" قلت له: "باختصار شديد، هذه المحاضرات القيّمة لن تعيد إلينا شبراً واحداً من فلسطين. والطريق إلى ذلك هو أن نلجأ إلى استخدام السلاح، شأننا في ذلك شأن مجموعات المقاومة الوطنية ضد الاحتلال الألماني في البلاد الأوروبية، بل لعل الأقرب هو منظمات العدو الصهيوني كالهaganاه وغيرها." عندها أجابني شخشير بشكل قاطع: "اسمع يا أخي. شخصياً لا أعتقد أن ما تقوله لي وارد ومقبول، لكني أقترح عليك أن تلتقي صديقاً طيباً وموثوقاً به. وفي اللقاء معه يمكنك أن تطرح عليه كل ما عندك من اقتراحات وآراء."

بعد أيام فاجأني توفيق شخشير ومعه صديق بمقهى فيصل. وبعد أن عرف أحدنا إلى الآخر قال لي: "إن كل ما قلته لي يمكنك أن تبحث فيه مع صديقي جورج حبش"، ثم انسحب من ذلك اللقاء ولم يسمع كلمة واحدة مما تحدثت به مع حبش.

كانت الجلسة مع "أبي ميساء" طويلة تحدثت معه فيها عن أهمية العنف وضرورة استخدام السلاح، وأن لا شيء يمكن أن يعيد لنا بلدنا غير القوة والعتاد. ثم تطرقت بشيء من التفصيل إلى مجموعات المقاومة الأوروبية خلال الحرب العالمية الثانية، وأشارت إلى عصابات الصهيونيين وما قامت به من أعمال عنيفة وعسكرية ضد عرب فلسطين، وأكدت وجوب أن نتدرب وأن مناقشاتنا وكلامنا كله على حقنا في فلسطين لن يجديا نفعاً، وأن السلاح والتسلح والتدريب هي التي يمكن أن تعيد الأمل إلى نفوسنا بالعودة إلى بلدنا. في نهاية حديثي قال حبش إنه "موافق ومرتاح لما طرحت." وبعد ذلك بلغت حبش أننا لسنا وحدنا في هذا الميدان وأن هناك أكثر من مجموعة تستعد وتدريب، وأن هذه المجموعات ستبدأ نشاطها قريباً.

في آذار/مارس 1949 رُتب اجتماع في بيروت حضره وشارك فيه حسين توفيق وعبد القادر عامر من مصر، وجهاد ضاحي من سورية، وحيش وأنا.

جرى تنظيم العمل ووزعت المسؤوليات واتفق على تسمية التنظيم "كتائب الفداء العربي". وفي الأسبوع الأول من تموز/يوليو 1949 - بعد أكثر قليلاً من ثلاثة أشهر على انقلاب حسني الزعيم - قامت مجموعة من كتائب الفداء بضرب كنيس يهودي في دمشق بعد أن أُعلن عن توقيع اتفاقية الهدنة السورية - الإسرائيلية، وبعد أن وصلت معلومات عن لقاء بين مسؤولين سوريين وبين ساسة وعسكريين صهيونيين. وكانت عملية الكنيس هي العملية الأولى التي نفذتها عناصر من كتائب الفداء.

لقد تشكلت في بيروت خلايا عديدة من طلاب الجامعة الأميركية قام بتدريبها مناضل سبق أن قاتل مع جيش الجهاد المقدس الذي كان يقوده عبد القادر الحسيني. هذا، وكانت مشكلة المال من أصعب ما واجهنا من مشكلات صعبة، لكن تغطيتها كانت تتم عن طريق اشتراكات الأعضاء، وتبرعات بعض الطلاب الموثوق بهم، إضافة إلى قيام العديد منا ببيع الدم لمستشفى الجامعة الأميركية. وقد وفرت لنا تلك الأموال إمكان شراء كمية معقولة من السلاح والذخيرة والمتفجرات.

لم تكن أمورنا مقصورة على التدريب وشراء العتاد وتأمين تخزينه فحسب، بل كان هناك أيضاً برنامج تثقيفي بشأن رفض الاستسلام وأهمية المقاومة. بعد أشهر قليلة قامت مجموعة من طلاب بيروت بعملية ضرب مدرسة الأليانس اليهودية في أوائل سنة 1950، وكان لحبش دور أساسي في هذه العملية الجريئة. لم تقف هذه النشاطات حائلاً أمام قيامنا بالنشاط السياسي المطلوب منا أدائه في جمعية العروة الوثقى ونشاطاتها، وفي خارج إطار الجمعية المذكورة. ففي أيار/مايو 1950 عرفت هذه الجمعية أكبر معركة انتخابية في تاريخها لانتخاب الهيئة الإدارية، إذ نجحت القائمة القومية بفارق كبير في الأصوات في مقابل قائمتين منافستين؛ لقد تم انتخاب أحمد الخطيب رئيساً للهيئة الإدارية، بينما انتخب جورج حبش رئيساً للهيئة العامة لجمعية العروة.

\* \* \*

ومن الجدير بالذكر هنا أن حبش لم يكن في دراسته طالباً عادياً، بل كان طوال الوقت متفوقاً جداً بين طلاب صفه؛ وعلى كل، فقد تميز طلاب ذلك الصف في كلية الطب، في معظمهم، بأنهم غير عاديين، وأصبحوا فيما بعد أطباء متميزين. وضم هذا الصف عدداً من الطلبة الذين عرفوا بنشاطهم السياسي، إذ كان من زملاء حبش في تلك السنة منصور أرمللي\* - من الناصرة - وكان آنذاك من أبرز الطلبة الشيوعيين في الجامعة؛ وجمال الشاعر الذي تولى مسؤولية فرع لبنان لحزب البعث العربي لأكثر من عامين. هذا وكان معروفاً أن حبش وأرمللي كانا يتنافسان بشأن أولوية الصف طوال أعوام الدراسة في كلية الطب بالجامعة الأميركية، وعرف عن حبش، بالإضافة إلى نكاته الشديد، التزامه الأخلاقي علاوة على صفات شخصية خاصة.

في إحدى الجلسات الخاصة مع حبش في ربيع سنة 1950 قال لي إن العطلة الصيفية لسنة 1948 هي فترة لن ينساها أبداً لا لضياح فلسطين فحسب، وهي نقطة أساسية ومهمة في حياته، بل أيضاً بسبب تجربة شخصية عاشها حين ذهب إلى مدينته اللد ليعمل في مستشفىها كمتنمّن، وهذا جزء من دراسة الطب. وقال إنه في أثناء عمله، وكانت المدينة آنذاك تحت حماية الجيش العربي، فوجئ بظهور جنود صهيونيين (من اليمين) يحملون جرحى من جنود العدو ويطلبون منه معالجتهم فوراً. لقد تأثر كثيراً بهذه الحادثة، وزاد في آلامه أن شقيقته كانت في حالة صحية صعبة جداً. كما أن الصهيونيين الذين احتلوا اللد قاموا بجمع العشرات من الشبان وسجنوهم في أحد مساجد المدينة، بعد أن أعلنوا منع التجول، ثم قاموا في الصباح الباكر بقتلهم في المسجد ورتبوا عملية إجلاء السكان كلهم من المدينة، مطلقين الرصاص فوق رؤوس آلاف المهجرين من مدينتهم وبيوتهم. ويتابع حبش أن ذكريات ذلك الصيف مزروعة بعمق في نفسه وعقله ولا يستطيع أبداً أن ينسى تلك الساعات الرهيبة.

في هذه المرحلة السوداء كان هناك مجموعة من الطلاب احترفت التعليقات والسخرية من الطلاب الآخرين، وكانت تطلق على عناصر المجموعة القومية التي كانت تنشط بسرية لقب "جماعة حزب الوشوشة". لكن هذه الصورة الساخرة تغيرت جذرياً بعد أن انكشف أمر "كتائب الفداء العربي"، وبعد اعتقال معظم قياديين ذلك التنظيم في سورية في تشرين الأول/أكتوبر 1950، وتحول الهزء إلى احترام وتقدير بعد أن نشر قرار الاتهام الذي أعده قاضي التحقيق العسكري في صحف لبنان وخارجه، وظهرت أسماء المتهمين وما قاموا به من نشاطات وأعمال عنيفة، وكان بعضهم من طلاب الجامعة الأميركية.

بعد أن أمضيت ومعظم المتهمين سبعة أشهر في سجن المزة بدمشق، ذهبت إلى بيروت للتشاور مع جورج حبش بشأن ما يجب عمله بعد فشل تجربة "كتائب الفداء العربي". وبعد جلسات عديدة مع الرجل لفت نظري اهتمامه بأن يحضر معنا بعض الإخوان في أكثر من لقاء. ولعل السؤال المهم الذي طرحه عليّ في إحدى تلك الجلسات الخاصة هو: "ماذا تقترح أن نعمل الآن بعد أن فشلت تجربتنا؟"

قلت له: "علينا أن نتابع الطريق إذ لا نزال في البداية. لقد كان متوقفاً أن تكون عقوبتنا أكثر من التعذيب والسجن لبضعة أشهر... علينا أن نواصل العمل والنضال."

بعد هذه الملاحظة صارحني حبش بوجود مجموعة من الإخوان "نعمل معاً لمواجهة الأزمة الحالية التي تمر بها أمتنا، لكنني أود أن أشير إلى أن العنف وحده لن يحقق الهدف الذي نسعى له." ومن الطبيعي أن أسأله عن أهداف التجربة الجديدة والعديد من التفاصيل، ثم قبلت الانضمام إلى المجموعة التي كان أعضاؤها من الهيئة الإدارية لجمعية العروة الوثقى وهم: أحمد الخطيب؛ وديع حداد؛ صالح شبل؛ حامد الجبوري.

من نشاطات هذه المجموعة تشكيل لجنة ثقافية يكلف كل فرد من أعضائها ومن لديهم من أصدقاء، بتقديم كتاب مختار مع تعليقات نقدية سلبية وإيجابية. وكان بيت "أسماء الموقّع" قرب الجامعة هو المكان الذي تلتقي فيه هذه العناصر القومية. وبين الذين ترددوا على هذه اللقاءات الأسبوعية من كانوا، في البداية، أصدقاء ثم تحولوا فيما بعد إلى عناصر قومية نشطة، مثل نهاد هيكل وأديب قعوار وثابت المهاني وغيرهم.

في حزيران/ يونيو 1951 تخرج حبش طبيباً، بينما تخرج صالح شبل من دائرة الاقتصاد. وفي السنة التالية تخرج أحمد الخطيب ووديع حداد طبيبين، كما تخرج في السنة نفسها حامد الجبوري من دائرة العلوم السياسية. وتولى حبش - بعد تخرجه من الجامعة - عملاً في كلية الطب بالجامعة، لكنه لم يستمر في هذه المسؤولية بعد التظاهرة الكبيرة التي نظمها طلاب الجامعة تأييداً لحكومة مصطفى النحاس التي أعلنت في تشرين الأول/أكتوبر 1951 إلغاء المعاهدة المصرية - البريطانية التي عقدت في سنة 1936.

في النصف الأول من سنة 1952 غادر حبش لبنان إلى الأردن، ثم التحق به وديع حداد بعد بضعة أشهر، حيث افتتح الطبيبان عيادة طبية في حي شعبي في عمان، وبدأ الاثنان نشاطهما الحزبي الواسع هناك. ■

(\*) مفكر قومي، من مؤسسي حركة القوميين العرب، ومحرر كتاب "حركة القوميين العرب" (3 مجلدات).

(\*\*) إن مصطلح "حكيم" يستخدم في لبنان عامة وفي الجامعة الأميركية خاصة للأطباء وطلاب كلية الطب.

(\*) منصور أرملتي تخصص بعد تخرجه من الجامعة الأميركية بجراحة العين. وقد أبدع كثيراً في هذا الميدان وخصوصاً بعد أن عين رئيساً لقسم العيون في المركز الطبي لجامعة جورج واشنطن في العاصمة الأميركية في ستينيات القرن الماضي.

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: [majallat@palestine-studies.org](mailto:majallat@palestine-studies.org)  
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعتها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:  
[http://www.palestine-studies.org/ar\\_index.aspx](http://www.palestine-studies.org/ar_index.aspx)